الغريب

عرض ونقد لكتاب

COLIN WILSON : *The Outsider*. London, 1956.

بقلم محمد مصطفى بدوى

ظهر فى العام الماضى كتاب باللغة الانجليزية تحت اسم « الغريب » كتبه مؤلف انجليزى شاب يدعى « كولين ويلسون » ولقد أحدث ظهور هذا الكتاب ضجة فى الأوساط الأدبية والفكرية عامة فى انجلترا وأمريكا حتى أن اسم كولين ويلسون هذا أصبح يتردد على أفواه جميع من يعنون بالثقافة بعد أن كان نكرة لايذكره إلا بعض من كانوا يترددون على مكتبة المتحف البريطانى بلندن . وطبع كتابه سبع مرات فى الفترة مابين مايو ويوليو ١٩٥٦ . ولعل صغر سن المؤلف من الأسباب التى خلعت عليه هذه الشهرة الفجائية ، فهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين . ولقد تحمس له بعض النقاد واعتبروه كاتباً من الطراز الأول احتل مكانة ضمن كبار الكتاب وهو لايزال فى هذه السن المبكرة . فقد علق الناقد المعروف « سيريل كونولى » على الكتاب قائلا أنه " من أروع المؤلفات الأولى التى قرأها منذ وقت طويل " . وقالت الشاعرة الناقدة « إيديث ستويل » إنه "كتاب فذ ، وإنها تعتقد أن مؤلفه سيصبح من كبار الكتاب حقيقة " ، بينما قال « فيليب توينبى » أن مؤلفه " قد أضاف بالفعل إلى فهمنا لأشد مشاكلنا عمقا . " ومن يعرف شيئا عن الثقافة الانجليزية المعاصرة يدرك فى التو أن أفرادا مثل « كونولى » و « ستويل » و « توينبى » ليسوا ممن يستهان بحكمهم فى مثل هذه الأمور ، ولا هم ممن يلقون بالقول جزافا . ولهذا كان علينا أن نعرض أهم الأفكار فى هذا الكتاب قبل أن نصدر حكمنا عليه . وندرسه دراسة جدية نزيهة لنرى ماإذا كان فيه إضافة حقيقية إلى فهم المشاكل الروحية والفكرية فى القرن العشرين كما يدعى بعض النقاد .

يصف ويلسون كتابه بأنه " بحث فى كنه مرض الإنسانية فى منتصف القرن العشرين " ، فهو إذن يفترض أن الإنسانية مريضة فى هذا العصر . ويحاول فى كتابه أن " يشخص " هذا المرض باعتبار أن التشخيص الخطوة الأولى فى سبيل العلاج الذى يقترحه قبيل خاتمة الكتاب . أما المرض الذى تعانيه الإنسانية الآن فهو مرض " الغربة " . ماكنه هذا المرض بالضبط ؟ ليس الجواب عن هذا السؤال بالأمر الهين . لقد كرس المؤلف عدة فصول من كتابه لإيضاح أعراض هذا المرض ، ولذلك لعل أسلم الطرق أن نتتبع هنا تحليل المؤلف نفسه .

يبدأ المؤلف فيقول إن مشكلة الغريب تبدو لأول وهلة مشكلة اجتماعية ، فالغريب هو الفرد الذى لا يتلاءم مع المجتمع الذى يعيش فيه ، ويدلل على هذه الظاهرة بعدة شخصيات خلقها الأدباء ، فيذكر منها أولا شخصية بطل رواية " الجحيم " للكاتب الفرنسى هنرى باربوس " (Barbusse) التى ظهرت فى بداية القرن العشرين . ولكى يضفى " باربوس " على بطله صفة عامة لم يمنحه إسماً معينا ، فيظل نكرة خلال الرواية كلها ، وكل مانعرفه عنه أنه نزح من الريف إلى مدينة باريس حيث شغل وظيفة ما فى أحد مصارفها وقطن غرفة فى أحد الفنادق . وهو يعيش فى هذه الغرفة وحيدا يشغله التفكير فى أمور عدة. إنه يعلم تمام العلم أنه ليس بالعبقرى أو الموهوب وإنما هو شخص عادى فحسب. إنه لايعبأ بالدين ، أما عن الجدل الفلسفى فهو فى رأيه لا معنى له ، إذ ليس من الممكن التحقق من أى شئ . وماذا يا ترى يقصد الناس حينما يتحدثون عن الحقيقة الفلسفية ؟ إنه لايفهم من ذلك شيئاً . ثم يطوف به التفكير حتى يعرج على مشكلة الموت . فيصرف بعض الوقت فى التفكير فيها . ولكنه سرعان مايجذب انتباهه بصيص من الضوء منبعث من أعلى الحائط فى غرفته بالفندق فيتبين أنه من الغرفة المجاورة ، ويقف على سريره ، وينظر من الثقب فى الحائط . وهكذا تبدأ قصة صاحبنا ، فهو يقف كل يوم على سريره ، وينظر إلى مايدور فى الغرفة المجاورة فى الليل ويظل يفعل ذلك لمدة شهر ، كأنما هو بطل

على الإنسانية من عل ومن الخارج فيثير غرائزه أول ليلة مشهد امرأة تخلع ثيابها ، وفى ليلة أخرى يشاهد عاشقين شابين فيبعث ذلك فى نفسه الشفقة والحنان وحب الانسان . وفى نهاية الرواية يقابل صاحبنا فى حفل روائيا واقعيا يتحدث عن كتاب له أتم تأليفه ، وحاول فيه أن يصور الطبيعة الإنسانية تصويرا واقعياً صرفا ، فيذكر الروائى كيف أنه ابتدع قصة رجل ثقب ثقباً فى حائط غرفته لكى يرى ماتحدث فى الغرفة المجاورة . وبعد أن يفرغ الروائى من عرض قصة روايته يبدى الحاضرون جميعاً إعجابهم بها ، إلا أن صاحبنا يلزم الصمت ، لأنه لم يجد فى الرواية صورة صادقة للحياة الإنسانية كما عرفها هو عن طريق التجربة المباشرة . لقد عرف هو الإنسان حق المعرفة ، فهو يقول : " لقد توغلت إلى قلب الإنسانية ، ورأيت الإنسان بعد أن خلع عنه مظهره الخارجى " .

ومشكلة بطل " الجحيم " أنه " رأى أكثر مما يجب وتعمق فى رؤيته أكثر مما ينبغى " ، وهو يظن أن مارآه هو الحقيقة التى تحجبها طبيعة الحياة فى المجتمع المتمدين . ويجد ويلسون فى شخصيته جميع ملامح شخصية "الغريب" ويتساءل : أهو غريب لأنه شاذ ؟ أم هو شاذ لأن فى أعماق نفسه تكمن قوة غريزية تدفعه إلى الوحدة وتجنب صحبة الغير ؟ إنه يشغله التفكير فى الجنس وفى الجريمة وفى المرض . وهو غريب لأنه يدافع عن الحقيقة وحدها ولايقبل غيرها . ولهذا فهو ثائر على المجتمع ، لأن الإنسان الاجتماعى يغض الطرف عما فى أعماق نفسه من نزعات غامضة شريرة ، ويدعى ويخدع نفسه كما يخدع الغير فيحجب حقيقة ذاته عن نفسه ويتخذ قناعا من الفلسفة أو الدين أو مظاهر الحياة المحترمة يخفى وراءه كل نزعات الفوضى والوحشية واللاعقل التى تقبع فى ذاته ، بحيث يبدو أمام نفسه وأمام الغير وكأنه كائن عاقل متمدين . بينما يغرق الغريب فى الاستبطان ، ويعرف الإنسان على حقيقته ، ويدرك الزاع القائم فى نفسه بين ماهو حيوانى صرف وبين ماهو إنسانى نبيل . لذا يمكننا أن نصف الغريب قائلين إنه الشخص الذى ينشق على ذاته .

ويذهبنا ويلسون الى أننا يجب ألا نعتقد أن الغريب هو الفنان . فليس كل فنان غريبا . بل ان صفات الغريب لا تتحقق فى عدد كبير من كبار الفنانين مثل شكسبير ودانتى . فالذى يميز الغريب هو إحساسه بأن العالم غير حقيقى ، لأن ما يراه الغريب فى العالم هو الفوضى وليس النظام الذى يجده الشخص البرجوازى المنسجم مع المجتمع الذى يعيش فيه . حقيقة لا تنكر العقلية البرجوازية عوامل اللامعقول كلية ، الا أنها تؤمن بأن العالم فى مجموعه يسوده النظام ، وبأن الحكمة تقضى بأن نتغافل عن عامل اللامعقول فيه . لكن الغريب لا يبصر غير اللامعقول والفوضى ، ويؤمن بأن واجبه أن يجابه هذه الفوضى وجها لوجه ففى مجابهة الفوضى الوسيلة الوحيدة للوصول الى النظام فى نهاية الأمر ، ان كان لهذا النظام وجود على الإطلاق . ومهما يكن من شىء على الغريب أن يجابه الفوضى ، ويتحدث عنها ، لأن الفوضى فى نظره هى الحقيقة ، ولا يستطيع الغريب أن يقول غير الحقيقة مهما كلفه ذلك من ثمن . وحينما يحس الغريب بغرابة العالم ، ويلمح الفوضى التى يتمخض عنها ، تتغير صورة الوجود فى نظره الى الأبد .

ويعتقد ويلسون أن الكاتب الانجليزى «هـ. ج. ويلز» (H. G. Wells) قد لمح هذه الفوضى فى آخر حياته ، كما يبدو من آخر مانشره . وهو الكتيب « العقل بعد أن بلغ أقصى ما يمكنه الوصول اليه » الذى يبين فيه كيف أن النظام قد تلاشى من الوجود ، وكيف أن الأحداث لم تعد تتحقق فيها الروابط المنطقية . وبالرغم من الفروق الشاسعة بين « باربوس » و « ويلز » فإنهما يجمعهما الموقف الجوهرى للغريب ، وهو رفض الحياة الإنسانية كما يحياها الناس فى المجتمع . فالحياة فى نظرهما عبارة عن حلم من الأحلام ، فهى تعوزها صفة الحقيقة . ويجد ويلسون فى كتيب « ويلز » تعبيرا عن أقصى درجات التشاؤم فى أدب القرن العشرين ، تعبيرا يوازى فى تشاؤمه قصيدة «الرجال الجوف» للشاعر الانجليزى «ت. س. إليوت» فيعتقد « ويلز » أن الإنسانية تسير بخطى حثيثة نحو الهلاك ولا مخرج لها من هذه الكارثة المحتومة . والذى يدعو إلى الرعب حقا أن ينتهى هذه النهاية اليائسة شخص مثل ويلز كان يمثل الروح العلمية والإيمان المطلق بقيمة

الفكر والدراسة والتحصيل فى شتى ميادين المعرفة . وقد يجد البعض أن النظرة اليائسة التى تلون هذا الكتيب ليست إلا تعبيرا عن مرض جثمانى أو نفسى أصاب المؤلف . إلا أن ويلسون يقرر أنه لا يجدى أن نتهم الغريب بأنه شخص مريض شاذ ، لأنه يدافع عن نفسه قائلا انه الفرد الوحيد الذى فى مقدوره رؤية الأمور على حقيقتها . فوقفه فى الواقع موقف المريض الوحيد الذى يدرك أنه مريض فى حضارة مريضة لاتعى بمرضها . بل ان بعض الغرباء يدعون أن الإنسانية ذاتها مريضة ، وأن الغريب وحده هو الذى يجابه هذه الحقيقة المرة .

وحينما جعل « باربوس » بطل روايته يقول " ماذا يا ترى يقصد الناس حينما يتحدثون عن الحقيقة . إنى لا أفهم من ذلك شيئاً " إنما كان يعبر دون وعي منه عن الفكرة الرئيسية التى تدور حولها كتابات الفيلسوف الدنمركى « كيركجارد » . لقد تبين « كيركجارد » أن الجدل الفلسفى لا معنى له ، وحجته فى ذلك عين حجة « ويلز » ، وهي أن الحقيقة تلغيه ، أو — فى حدود تعبير « كيركجارد » نفسه ... إن الوجود يلغيه . وقد صوب « كيركجارد » هجومه ضد ميتافيزيقا « هيجل » بالذات ، الفيلسوف الألمانى الذى افترض أن الوجود لا يتعارض مع المنطق ، وتحدث عن غاية الإنسان وموقفه من الزمان والمكان ، وكون فلسفة كلية شاملة تفسر الوجود بأسره تفسيراً عقلياً بديعاً . لقد كان « كيركجارد » عميق التدين ، ولهذا وجد فى تفلسف « هيجل » أقصى درجات السطحية ، وقال " انك تلغيني حينما تضعني فى أى نظام أو مذهب فلسفى ؛ فلست رمزا رياضيا وإنما أنا موجود حى " ولم ير « كيركجارد » أنه من الممكن للفرد أن يعيش مذهبا فلسفياً ما دون أن يلغى بذلك الحياة أو المذهب الفلسفى ، ولكنه وجد أنه يمكنه أن يعيش دينا ما دون أن يلغى الحياة أو الدين ، وفى هذه النقطة يشبه « كيركجارد » « نيتشه » ، إذ كون كلاهما فلسفة تبدأ من موقف الغريب ، فلسفة أصبحنا نطلق عليها الآن اسم الفلسفة الوجودية . وقد نشر هذه الفلسفة فى فرنسا كل من " سارتر " و " كامو " ، ولو أنهما وصلا إلى نتائج مختلفة فيما يتعلق بالطريقة

المشكلة إذن مشكلة سلوكية فى نظر ويلسون . إنها مشكلة البحث عن جواب للسؤال : ماذا يجب علينا أن نصنع بحياتنا ؟ وكل فرد يهمه أن يعرف الطريقة المثلى التى يجب عليه أن يحيا حياته بها . بدلا من أن يكتفى بمجرد قبوله الحياة كما يحياها من حوله ، يصبح فى الثوب غريبا . وحينما لا يقنع الغريب بقبوله الحياة كما يقبلها غيره يحس بأنه لا يحيا حياة حقيقية . ويزداد هذا الإحساس حدة حينما يؤلمه وهو لا يدرى من أين يأتيه الألم . وإذا بالعالم العادى يفقد قيمته فى نظره كما يفقدها فى نظر من مثل مريضا زمنا طويلا . وإذا بالحياة تتخذ صفة الكابوس فى عينيه . أو مثلما شاشة السينما حينما تتوقف آلة السينما فجأة عن إسقاط الصور . فيدرك الرجل فجأة أنه جالس فى دار السينما دون أن يدرى ويتساءل من أنا ؟ وماذا أفعل هنا ؟ وحينما ينقشع عن ذهنه وهم الشاشة ، وتذهب العلبة التى تربط بين الصور المتساقطة عليها ، يجابه الغريب حرية مرعبة وجها لوجه ، أو كما يقول « سارتر » يدرك المرء أنه " محكوم عليه بالحرية "، ويدرك أيضا أن واجبه الآن أن يجد من جديد ما يوجه حياته ، وأن يقوم بتحليل حقيقة دار السينما هذه تحليلا جديدا . لقد كان لكل مشكلة حلها فى عالم الصور الذى تعكسه الشاشة ، أما الآن ... وكما أن عالم الشاشة قد ثبت أنه مجرد وهم من الأوهام أليس من الممكن أن يكون عالم دار السينما نفسه غير حقيقى بدوره ؟ هذه هى الأسئلة التى تقض مضجع الغريب ، والمشاكل التى يعانيها . وإذا كنا نعتقد أنها مشاكل الوجود النهائية التى لا حل لها فينبغى لنا حينئذ أن نصف الغريب بأنه الشخص الذى يضع المشكلة التى لا حل لها . ولكن لويلسون رأيا آخر فى الموضوع ، وهو يدعونا قبل أن نبدى برأى قاطع فيه أن نختبر المحاولات التى قام بها البعض فى إيجاد حل لمشكلة الغريب .

لما كانت مشكلة الغريب فى جوهرها مشكلة الطريقة المثلى التى يحاول أن يحيا بها حياته فإننا لا نصورها تصويرا صادقا حينما نكتفى بدراستها فى كتب الأدب . حقا كان لابد لنا من تحليل بعض الكتب الأدبية ، لأن مهمة الأديب هى التعبير عن الذات ، ولأن هذه الكتب قد ساعدتنا على إيجاد صيغة نصوغ فيها مشكلات الغريب بشىء من الوضوح . ولكن ليست مشكلات الغريب فى جوهرها مشكلات فكرية بحتة ، وإنما هى مشكلات معيشية وقليل جدا

من الأدباء من يعتبرون الكتابة (كما يعتبرها « إليوت » مثلا) وسيلة يعيش بها حياته ، لا غاية فى ذاتها . لذا يجب علينا لكى نتعمق فى دراستنا لمشكلات الغريب أن ندرس حياة أولئك الرجال الذين كانوا يهتمون بمشكلة الحياة أكثر مما يهتمون بمشكلة الكتابة . وهنا يدرس ويلسون حياة ثلاثة من مشاهير الرجال : الكاتب الانجليزى « ت . ا . لورانس » ، والرسام الهولندى « فان خوخ » ، وراقص الباليه الروسى « نيجنسكى » . فيجعل من « لورانس » (دون أن يدرى) شخصية هاملت كما تصورها الرومانتيكيون ، إذ يعتقد أن الإغراق فى التفكير قد أدى به إلى الإحساس بأن الوجود غير حقيقى ، وعزله عن المجتمع الذى يعيش فيه ، لأنه " رأى أكثر مما يجب وتعمق فى رؤيته أكثر مما ينبغى " ، وأدرك أن الحضارة قائمة على الحاول الوسطى فحسب ، كما أنه زهد فى الحياة . لقد فشل « لورانس » فى تحقيق ذاته لأنه لم يكن يؤمن بأن له ذاتا واحدة ، بل كان يدرك دائما أن له أكثر من " أنا " يتعارض بعضها والبعض الآخر ، وكان يلزمه لكى يحقق ذاته أن يحقق أولا الوحدة فى مملكته الباطنة المنشقة على نفسها . أما « فان خوخ » فيعتقد ويلسون أنه كان فى جوهره غريبا بدت الحياة فى نظره مشكلة مؤلمة لابد له أن يحلها قبل أن يبدأ بحياها . لقد علمته تجاربه فى أوائل حياته أن الحياة فيها الخير والشر ، كما أن حساسيته المرهفة جعلته يحس احساساً بالغاً بما فيها من شر ، بشقائه وبشقاء العالم ، ولهذا توجهت ملكاته جميعا إلى البحث عن الخير ، عن القبول الغريزى المطلق للحياة . حقا لقد مرت به لحظات (وهو يخلق لوحاته الرائعة) أحس فيها بأن للوجود غاية ومعنى (شأنه شأن غيره من الفنانين) ، إلا أنه مضى بقية حياته محاولا أن يستعيد هذا الإحساس دون جدوى . ومما يعقد المشكلة أن هناك حاجات إنسانية لا علاقة لها بالمشكلة تتدخل وتفرض نفسها على انتباهه ، حاجات مثل الطعام والصحبة والمشاركة فى الحياة الاجتماعية ، فيحاول الفنان أن ينتبه إلى كل هذه الأمور ، بينما هناك ما هو أهم بكثير منها وأجدى بالتفكير . ومما يزيد الصعوبة معاداة الناس حوله له . وقد يدفع هذا التوتر العصبى الفنان الغريب إلى التفكير فى الانتحار ، ولكنه قبل أن يقدم على هذه الخطوة يبدو الوجود فجأة فى نظره وكأنه يتحقق فيه النظام بأجلى صوره ، وكأنه يكتب

الا وسيلة لأجل الحصول على حياة أوفر وأخصب ، وانتهى الى فكرة الإنسان الأعلى التى هى تصور دينى نشأ نتيجة لحاجتنا الى الخلاص . لقد دعا « نيتشه » الى نبذ الحياة البرجوازية القائمة على التلفيق والتوفيق والحلول الوسطى ، والى ضرورة تحول الفرد الى ارادة صرفة فى سبيل الحصول على حياة أكثر حيوية ونشاطا ، كما أنه تنبه الى ضرورة تحقيق وحدة بين الجسم والعقل والانفعال ، وأدرك أن الغريب نبى متخف ، وأن خلاصه فى اكتشاف غايته العميقة ، وفى العمل على تحقيقها بكل كيانه وجوارحه .

ان السؤال الذى يسأل الغريب نفسه فى احدى مراحل تطوره هو : ماذا على أن أصنع حتى أنقذ نفسى ؟ اذا كان الجواب على هذا هو أنه ليس هناك ماهو جدير بالإنقاذ فالأجدى للغريب أن يقتل نفسه أو ينتحر انتحارا عقليا . ولكنه يمكنه أن يتناول المشكلة من زاوية أخرى ويتساءل : ما الذى أود أن أنقذ نفسى منه ؟ ما أسوأ الاحتمالات التى أود أن أنقذ نفسى منها ؟ أهى المجازر السياسية والقنابل الذرية ؟ لا فليست هذه الصورة النهائية التى يتخذها الشر . ان الشر الذى يود أن ينقذ الغريب نفسه منه هو الشر الكامن فى أعماق النفس الإنسانية ذاتها ، والذى يرتعد المرء هلعا أمامه حين يراه ؛ وفى تلك اللحظات التى يرى المرء فيها هذا الجزء الحقيقى من ذاته يصيبه رعب هائل ، ولا يستطيع أحد أن ينقذه من رائن هذه الرؤية المخيفة " أمام هذا الشر يقف الطاغية الكبير (مثل هتلر) ولا حول له ولا قوة " لقد حاول « تولستوى » أن يهرب من هذه الذات أو الأنا عن طريق فكرة الغيرية فى المسيحية .

ثم يوضح ويلسون الدور الذى قام به « دوستويفسكى » فى حل مشكلة الغريب . لقد حدد « دوستويفسكى » مشكلة الشر تحديدا واضحا لا سيما فى رواية « الإخوة كرامازوف » ، واهتم بإحدى صور الشر فى العالم ، وهى ألم الطفل الذى يختلف عن ألم الرجل لأن الرجل فى وسعه أن يسمو على ألمه بقوة الإرادة . يقول إيڤان كرامازوف أنه مستعد لقبول الله ، وقبول حكمته وغايته التى لايدركها الإنسان ، ولكنه غير مستعد لقبول عالمه لما فيه من شقاء وقسوة وألم . عالمه الذى يتعذب فيه الأطفال هذا العذاب .

" انني لاأرفض الله ، ولكنني أعيد اليه بكل احترام تذكرة الدخول الى عالمه هذا " ولكن تحليل ايڤان للعالم تحليل عقلي صرف ، وعن طريق التحليل العقلي نصل الى أن الألم لا ينتهي أبدا . وكان من الممكن أن نعتبر نتيجة ايڤان صادقة لو كانت المسألة عبارة عن تحليل عقلي فقط ، ولكن «دوستويفسكي» لا يؤمن بالموقف العقلي وحده ، ويوافقه ويلسون على ذلك . فيقول ان تحليل ايڤان لا ينفي رؤية القديس للعالم ، اذ يرى القديس أيضا أن الحياة بدورها لا تنتهي أبدا . ولا يقصد بذلك أن الألم والحياة مبدءان متصارعان ، وانما هما يوجدان على مستويين مختلفين ، فرؤية الألم وحده وليدة الثقة بالعقل وحده ، بينما الإيمان بأن الوجود لا متناهي حقيقة « وجودية » لاتبلغها عن طريق العقل . يقول القديس أوغسطين إنه لكي نفهم ينبغي أن نؤمن . ولكن ماذا يفعل المرء اذا لم يجد في نفسه ذرة من الإيمان ، وكان مفكرا عقليا صرفا لا يرتاح له بال حتى ينفذ خلال الأوهام وشتى أنواع الخداع الى قلب الحقيقة نفسها ؟ هذه هي احدى المشكلات العويصة التي تجابه الغريب . اذ يحس الغريب بأن كيانه كله يسعى الى اشباع عاطفي ، ويحن الى حقيقة راسخة من الممكن لمسها ، وفي الوقت عينه يجد ملكة التفكير العقلي تنحى جانبا ، وتسخر من امكانية هذا الإشباع ، بل وتحول بينه وبين نفسه . فالذي يجب على الغريب أن يفعله اذن ؟ أيكبت ملكة تفكيره عن قصد ، ويقبل ايمانا ما ، آملا أن يأتي اليوم الذي يتفق فيه عقله وهذا الإيمان ؟ أم يقبل قول « أوغسطين » إنه لكي نفهم ينبغي أن نؤمن ؟ في رأي ويلسون لا يستطيع الغريب أن يقبل أيا من هذين الأمرين ، وانما في مقدوره أن يحل مشكلته بأن يدرك أن الإنسان لا يتكون من العقل والانفعال فحسب ، بل أن له جسدا أيضا . وهذا هو ماننساه بسهولة عادة ، اذ تتمركز حياة الغريب على عقله وانفعالاته عادة ، ناسيا بذلك جسده تماما . لكن واجبه ، كما ذكر « نيتشه » وكما نوه بذلك « دوستويفسكي » ، أن يحقق وحدة بين هذه العناصر الثلاثة جميعا . على الغريب أن يحب الأرض أيضا .

ويلخص ويلسون صفات الغريب قائلا إن أقصى مايصبو اليه الغريب أن لا يظل غريبا ، وانما يصبح شخصا متزنا ، كما أنه يود أن يبلغ ضربا من الإدراك الحسى حيا شديد الحيوية ، كذلك يرغب فى فهم ذاته وفى فهم الروح الإنسانية وكيفية قيامها بوظيفتها ، ويود أيضا أن يهرب من التفاهات إلى الأبد ، وأن تتقمصه إرادة نحو القوة ونحو حياة أوسع وأعنف ، وأن يتمكن من التعبير عن ذاته ومن تحقيق إمكانياته المجهولة . ويبين ويلسون أن خلاص الغريب يأتيه نتيجة لفعل متطرف يقوم به ، مثل الإغراق فى الوحدة أو تعذيب الجسد وما الى ذلك ، ولكن يجب أن نتأكد من أن الغرض من هذا الفعل المتطرف ليس التكفير عن الخطيئة ، كما نجد فى تاريخ المسيحية مثلا ، وانما قيمة الفعل المتطرف فى تنشيط الإرادة التى ينبع منها وفى توكيدها وزيادة حيويتها . ويصل الغريب الى فكرة خلاصه وخروجه من محنته خلال لحظات من الكشف والرؤيا الصوفية . ويحاول ويلسون أن ينشىء علاقة وثيقة بين الإرادة والكشف الصوفى ، فيقول اننا نتخيل حينما نقرأ عن رؤى الأنبياء والقديسين أن الرؤية " ظهرت لهم " ، ولكن الأصوب أن نقول أن القديس هو الذى ظهر للرؤية . فلا ريب أن العقل الحديث مصيب حينما يشك فى امكانية هذه الرؤى ان فهمناها على أنها أحداث تحدث أمام عين الرائى السلبى . لكن الرؤى ليست كذلك ، فالذى يحدث بالفعل هو أن الإرادة نفسها "تجعل" شيئاً ما يحدث ، ولا شك أن العقل الأوربى يخطىء حينما يتصور الارادة شيئا جامدا غير حيوى . ويحاول ويلسون أيضا أن يبين أن مايراه المتصوف فى لحظات الكشف يجب اعتباره معرفة ، لأن كل مايستطيع المرء أن يجربه يعتبر معرفة . وفى هذه المرحلة يدرس ويلسون متصوفين انجليزيين هما « جورج فوكس » (الذى عاش فى القرن السابع عشر) ، والشاعر « ويليم بليك » .

وهكذا يجب على الناس جميعا أن ينموا فى نفوسهم ملكة الرؤيا . هذا هو ما ينادى به « ويليم بليك » ويوافق عليه ويلسون . والسبب فى كونهم لاينمون هذه الملكة يرجع إلى أنهم يعيشون حياتهم بطريقة خاطئة ، إذ يهتمون أكثر

مما ينبغي بأمور الحياة العادية العملية مثل الربح والتجارة والإنفاق وما إلى ذلك . ولكن ليس الإنسان وحده هو المسئول عن فقدانه ملكة الرؤيا ، بل المسئول عنها أيضا العالم الذي يعيش فيه ، إذ تقضي طبيعة هذا العالم على الناس بأن يهتموا بهذه الأمور لكي يظلوا أحياء . ومع ذلك يستطيع الناس جميعا أن يستعيدوا هذه الملكة لو توفر لديهم القسط الكافي من الهدوء الروحي ، وحينئذ تبدو لهم كل ورقة من أوراق الشجر في هذا العالم ، وكل ذرة من الغبار فيه ، عالما مستقلا في إمكانه أن يولد منعة لامتناهية . فالذي يحول دون تفتح الفرد لمصادر المتعة هذه كونه يضيع وقته سدى . وينفق طاقته في التافه من الأمور . وهكذا يصبح المثل الأعلى هو الشاعر التأملي ، أو الحكيم ، الذي لا يعنى بالمال والطعام إلا بمقدار ضئيل يسد رمقه ويمكنه من مواصلة الحياة ، والذي لا يفكر أبداً فيما يدبره للغد . وهذا الموقف من الوجود شرقي في جوهره ، ولهذا يصعب على العقلية الغربية أن تتخذه . ويرى ويلسون أن موقف « بليك » من الحياة هو عينه موقف الحكيم الشرقي ، وهو موقف لا يؤدي إلى الحضارة الصناعية الحديثة ، وفي هذا سر كراهية « بليك » للثورة الصناعية . إذ توحي لفظة " التأمل " للرجل الغربي بكل ما هو غير عملي ، وبكل ما ينتمي الى عالم الأحلام ، ويصعب على الرجل الغربي أن يتصور حضارات بأسرها قامت على فكرة التأمل وتحقق فيها النظام . ولعل أقصى ما وصل اليه سوء فهم التأمل هو الموقف الماركسي الذي يقول بأن الدين لا فائدة منه لأنه غير عملي ، والذي يسيء فهم طبيعة الدين فيفصله كلية عن الحياة .

وهكذا ينتهي ويلسون الى الموقف الديني الشرقي والهندي خاصة ، ويعرض حياة المتصوف الهندي الكبير « سري راماكريشنا » قبيل خاتمة الكتاب . وينهي ويلسون كتابه بالإشادة بموقف الفيلسوف المتصوف الحديث اليوناني الأصل « جوردجيف » Gurdjieff ، فيعتبر فلسفته فلسفة الوجود الكاملة المثالية ، اذ لا يهتم الفيلسوف فيها بالأفكار لذاتها ، ولكن لنتائجها في الحياة . ولهذا يتكون " مذهبه " الفلسفي من تمارين مختلفة لا يعرفها الآن إلا أتباعه ومريدوه . ويبدأ « جوردجيف » بأن الإنسان عديم الإرادة ، نائم غارق في الأوهام . ولكن يجب عليه أن يستيقظ من سباته ، وادراكه أنه غير

حر أول خطوة فى سبيل حصوله على الحرية، وطريقة خلاصه فى اتباعه طريقة النمو المتسق للانسان بكل نواحيه معا ، أى نمو جسده وانفعالاته وعقله معا . بل قد يعجب القارىء حينما يعلم أن هذا الفيلسوف المتصوف قد أنشأ معهدا فى فرنسا بالفعل يتعلم فيه من يرغب كيف ينمى نفسه على هذا المنوال ! كما يهاجم ويلسون الانسانيين Humanists لأنهم يدعون الى الكمال الروحى ، ولأن موقفهم عبارة عن " ايمان غامض لدى العلماء والمناطقة الذين اكتفت رؤوسهم بعالم الرياضة والطبيعة فلا يهتمون بالمسائل الدينية ويهملون معرفة نفوسهم " . ويثنى على « برنارد شو » لاعترافه بأهمية الإرادة القصوى ، ولتوكيده فكرة دفعة الحياة . بل وقد يزيد عجب القارىء حينما يجد ويلسون يضع « برنارد شو » فى مصاف عمالقة الروح الإنسانى مثل « بليك » و« دوستويفسكى » ، ويقول عن كتابه الغريب الذى لخصناه هنا بأنه " لو دفع هذا الكتاب القارىء الى اعادة قراءة ماكتبه برنارد شو لأدى الغرض منه وأكثر " .

وبعد أرجو أن يغفر لى القارىء هذا العرض المطول ، فقد حاولت بقدر المستطاع أن أتبع فيه نفس المنهج الذى نهجه الكاتب فى كتابه لكى أعطى القارئ فكرة صادقة عنه . يقول الكاتب إنه اتبع منهجا تجريبيا ، أى أنه بدأ بتحليل بعض الكتب أو الشخصيات بقصد الوصول الى قضايا عامة من مشكلة الغريب ، وهو صادق فى قوله الى حد بعيد ، الا أن الفكرة التى يكونها القارىء اثر قراءته هذه الدراسة هى أنها ليست بالدراسة المنهجية العلمية للمشكلة ، فلايقف ويلسون عادة طويلا عند الظاهرة الواحدة (هذا اذا استثنينا مناقشته بعض المسائل كروايات « دوستويفسكى » و « هيسه ») . ويحللها تحليلا مفصلا وافيا يخرج منه بقضية واضحة يمكن مناقشتها وربطها بغيرها من القضايا . وانما سرعان ما نظر أله أثناء تناوله الظاهرة الواحدة نقطة مشتركة بينها وبين ظاهرة أخرى . وبالرغم من أن المقارنة والمقابلة فى هذه الأمور من الوسائل التى قد تساعد على ايضاح الموضوع ، إلا أنها كثيرا ما تذهب بنا بعيدا عن النقطة الرئيسية . وقبل أن يعطينا الكاتب من الوقت ما يكفى لتأمل هذه العلاقة الجديدة يقفز بنا الى ظاهرة ثالثة ورابعة ، وبعد ذلك قد يعود الى الظاهرة

الأولى وقد لايعود اليها . ولعل هذا يفسر لنا كيفية تطويره للموضوع . حقا ان الموضوع يتطور ، ففى خاتمة الكتاب نجد مايعتبره الكاتب ردا على الأسئلة التى أثارتها فصوله الأولى ، الا أن هذا التطور ليس تطورا واضحا يسير فى خط مستقيم ، مما يجعل قراءة الكتاب صعبة نسبيا ، ومما يقلل من وضوح الفكرة الرئيسية به . وقد نعزو هذه الظاهرة الى صغر سن المؤلف ، اذ يبدو كأنه حشد فى هذا الكتاب " جميع " ما يعرفه من الحقائق والمعطيات التى يدلل بها على صحة قضيته . بينما يكتفى الكاتب الناضج باختيار بعض الحقائق ذات المعنى وتحليلها تحليلا مفصلا . وربما السبب أيضا هو سرعة تأليف الكتاب ، اذ لم تستغرق كتابته سوى بضعة شهور . هذا فضلا عن أن طبيعة المشكلة التى يعالجها الكاتب يعوزها الوضوح الكافى ، اذ يتحدث أحيانا عن حالات شعورية معقدة يصعب الحديث عنها ، كما هى الحال فى تعليقه على لوحات الرسام « فان خوخ » .

ما نوع هذه الدراسة ؟ إنها ليست بالدراسة الاجتماعية لمشكلة الغريب بالرغم من أنه من الممكن أن نعالج هذه المشكلة معالجة اجتماعية ، فنشخصها الى حد ما تشخيصا اجتماعيا ، ونعرض أسباب المرض فى أسلوب الاجتماع ، وفى حدود المفهومات الاجتماعية . كما أنها ليست بالدراسة السيكولوجية ، بالرغم أيضا من أن المشكلة تبدو لأول وهلة مشكلة سيكولوجية ، وبالرغم من أن المحللين النفسانيين لاشك لديهم تفسير لها يعتبرونه كافيا . ولانستطيع أيضا أن نصفها بأنها دراسة فلسفية بحته ، إذ ينكر الكاتب قيمة الفلسفة فى إيجاد حل لمشكلته بالرغم أيضا من أنه يستعين بالتحليل الفلسفى أحيانا ، وإن كان لايعتمد عليه بنفس الطريقة والى الحد الذى نجده عند رجل فى جوهره فيلسوف (رغم تدينه) مثل « كيركجارد » . ربما نكون قريبين من الحقيقة ان وصفناها بأنها دراسة أدبية أخلاقية ، فمشكلة الغريب كما يخبرنا ويلسون مشكلة سلوكية ، إنها مشكلة البحث عن القيمة . وبالرغم من أن ويلسون يخبرنا أن الغريب ليس هو الفنان ، الا أننا نجد فى أجزاء من كتابه نقداً فنيا وأدبيا من الطراز الأول (كما هى الحال فى تعليقاته على نتاج الروائى الألمانى « هيسه » وعلى بعض لوحات « فان خوخ ») . غير أننا فى الواقع لانستطيع أن نجزم

بأن الكتاب ينتمى الى أى فرع واحد من فروع المعرفة هذه فهو دراسة عامة أخلاقية فنية سيكولوجية فلسفية ، تنتهى الى التصوف ، والى الدعوة الى التصوف .

ويجدر بنا الآن أن نناقش باختصار بعض الآراء الرئيسية التى وردت فى هذا الكتاب الذى أحدث ظهوره ضجة فى العالم الفكرى المعاصر .

يدعى الكاتب أن غرضه دراسة مرض الانسانية أو محنتها فى منتصف القرن العشرين . ولكننا بعد أن نفرغ من قراءة الكتاب لاتتكون لدينا فكرة واضحة عن ذلك المرض الخاص الذى تعانيه الانسانية فى هذا الوقت بالذات . فلا يتتبع الكاتب تطور الفكر الانسانى حتى هذه المرحلة المعينة من تاريخ البشرية ، ولايعالج الظواهر الفكرية المعينة التى أدت الى خلق مشكلة بالذات يتميز بها القرن العشرون عن غيره من العصور بل ان من بين «الغرباء» الذين يتحدث عنهم ويلسون لكى يوضح كنه مرض الغربة من عاشوا فى القرن السابع عشر (مثل المتصوف الانجليزى جورج فوكس) وفى القرن الثامن عشر (مثل ويليم بليك) وأثناء تحليله لظاهرة الغربة يتبين لنا أن الغربة ليست الا مرحلة من مراحل النبوة ، فالغريب هو نبى فى مرحلة التكوين ، والأزمة التى يعانيها بمثابة آلام النمو ، أو أزمة النضج ، التى يمر بها النبى قبل أن يتكامل نموه ويصبح نبيا . ولاشك أن هذا القول يلقى ضوءا جديدا على المشكلة ، فتصبح الغربة أزمة نفسية يتميز بها طابع معين من الناس ، طابع غير قاصر على عصر بالذات أو فترة معينة . وفى حدود هذا الفهم لمشكلة الغربة يصبح القول بأن ميزة القرن العشرين فى أوربا أنه يساعد على خلق الغرباء قولا جريئا للغاية . فنحن لانستطيع أن نفهم لماذا يتميز هذا القرن بصفات معينة تساعد على خلق الأنبياء .

لاشك أن الحضارة الأوربية الحديثة تعانى أزمة ثقافية كبرى ، أزمة من نوع يختلف عن الأزمات الفكرية التى مرت بها أوربا من قبل . وقد حلت هذه الأزمة نتيجة لتطور الوعى الأوربى ، وتطور عوامل معينة فى هذا الوعى

خلال القرنين الماضيين . ومن مظاهر هذه الأزمة الفنان المتوحد الذى يثر عن المجتمع الكبير ، وانكمش فى ذاته ، وصعب عليه التعبير وتحقيق امكانيات شخصيته الفنية فى حدود المفهومات العامة المتفق عليها ، بل ان من مظاهر هذه الأزمة ندرة هذه المفهومات ، وانعدام الأسطورة العامة التى تربط بين الفنان وبين مجتمع قرائه . كذلك من مظاهرها الاهتمام المريض بمشكلة الشر ، والبحث الحائر عن مبررات هذا الشر الذى هو جزء جوهرى من الموقف الانسانى . هذه هى بعض مظاهر الأزمة التى هى أزمة الانسان الحساس العاقل الذى فقد ايمانه بالله ولم يجد بعد مايسد حاجاته العاطفية التى كان الايمان مركز إشباعها . وهى أزمة لعب العلم والتفكير العقلى فيها دورا بالغ الأهمية ، أدى فى نهاية الأمر الى ضعف العقيدة الدينية ، وان لم يؤد إلى القضاء على العواطف الدينية ذاتها . وهى أزمة كانت أحدى نتائجها الغريبة اشهار افلاس العقل والتفكير العقلى . ولكن لهذه الأزمة قصتها الجديرة بالعرض لذاتها فى مجال آخر . وحسبنا هنا أن نبين أن ويلسون لم يلمس هذه المشكلة الروحية والفكرية بالذات ؛ وهى المشكلة التى يتميز بها القرن العشرون فى أوربا حقا ، وإن كان أثناء دراسته للغريب قد عرض لبعض النواحى التى تميز ظاهرة الفنان المعزول عن المجتمع ، ولبعض النواحى التى تميز الفرد الحساس الذى فقد ايمانه فلم يعد لديه مايبرر الشر الانسانى ، ولبعض النواحى التى تميز المفكر الذى فقد ايمانه بقيمة التفكير المنطقى . الا أن حكمه النهائى على شخصية الغريب واهتمامه بوجه الشبه بينه وبين النبى جعلا من الغريب نموذجا بشريا معينا لايتحدد وجوده بزمان أومكان معينين . لهذا كان الناقد مبالغا شديد المبالغة حينما قال إن الكتاب "قد أضاف بالفعل الى فهمنا لأشد مشاكلنا عمقا." فإننا يخيب ظننا ان فتشنا فيه عن دراسة للمشاكل الروحية فى القرن العشرين بالذات .

يتفق ويلسون مع الوجوديين فى اعتقادهم بإفلاس العقل وعقم الفلسفة ويفصم نفسه عن التيارات الفلسفية المعاصرة فى انجلترا ، فيتهكم على رجال مثل « برتراند رسل » ، وعلى أصحاب الوضعية المنطقية

له الأمور . ولكننا نشك فى قدرة الإنسان على التفكير الواضح ، والتعبير الجلى ، وبالتالى على النقاش ، فى مثل هذه المسائل . وتذكرنا النتيجة الغامضة

والتحليل اللغوى ، فكل هذه المحاولات التى قامت بها الفلسفة المعاصرة فى نظره جهود ضائعة مصدرها كسل وجدب روحيان . ولا يتم علاج أمراض الانسانية فى رأيه الا عن طريق التصوف والتدين .

المعتمة التى انتهى اليها ويلسون مما فى كلمات الفيلسوف « فيتجنشتين » (Wittgenstein) من حكمة : " واجب الإنسان أن يصمت فى الأمور التى لايستطيع أن يتحدث عنها " .

كذلك يهاجم ويلسون الموقف الإنسانى من الوجود (Humanism) . ولكن ما الذى يضعه هو محل الإنسان ، إنه باستغنائه عن الله ، أو عن قوة أسمى من الإنسان يخضع لها وتحدد قيمه ، لم يترك فى الوجود مجالا لغير الإنسان . بل إنه يعارض أولئك المتصوفين الذين يؤمنون بموضوعية الرؤى التى تظهر لهم فى لحظات الكشف ، قائلا " الأحرى أن نقول إنهم هم الذين يظهرون للرؤى " باعتبار أن إرادتهم هى التى تخلق هذه الرؤى . وفى ذلك يضفى ويلسون على الإرادة أهمية قصوى ، بل انه يكاد يؤلهها . ولكننا نتساءل : أهذه ارادة عليا أم أنها ارادة انسانية ؟ لا شك أنها ارادة انسانية ارادة الفرد الإنسان . وهكذا لايدرك ويلسون التناقض الجوهرى فى موقفه ، فهو يبدأ بمهاجمة موقف الانسانيين ، ولكنه ينتهى الى موقف لا يقل انسانية عن موقفهم .

ولكن بالرغم من هذه المآخذ وغيرها مما يحويه الكتاب فلا يسعنا الا أن نعجب بهذا المؤلف الشاب الجرئ ، بسعة اطلاعه ورحابة أفقه ، ولا سيما بصدقه ، وبجدية تناوله للأدب والفكر والحياة ، اذ يعتبر الحياة مشكلة خطيرة واجب المرء أن يجابهها بنفسه بدون وساطة الغير ، وأن يجد حلا لها بنفسه وأن لا يقنع بالحلول الجامدة التى يفرضها عليه المجتمع والتقاليد ولا يجعل من التفكر مجرد نشاط ذهنى أجوف فلا يعزله عن الحياة وانما يضفى عليه مسئوليات جسيمة ، ولا يوحد بين الأدب والجمال . فاصلا بينه وبين الحياة بل يعتبره وسيلة يوضح بها الأديب مشكلاته فى الحياة ، وسيلة تمكنه من أن يحيا حياة أكثر غزارة وغنى . ولا يسعنا أيضا ، مهما اختلفنا معه على النتيجة الدينية المعينة التى وصل اليها ، الا أن نوافقه على أن الأسئلة التى يطرحها أفراد معينون فى تاريخ الانسانية عن معنى الحياة والغاية منها ليست بالأسئلة التى يستطيع الإجابة عنها علم السيكولوجيا أو الاجتماع أو الفلسفة أو العلم . ولا شك أن من مدارس الفلسفة الحديثة أولئك الذين يؤكدون لنا

أن هذه ليست أسئلة حقيقية وانما هي أسئلة زائفة في جوهرها عبارة عن تعبير لفظي عن رغبة أو حاجة عاطفية معينة . لكننا في الواقع لانستطيع أن ننكر أنها ذات معنى وان لم يكن معناها منطقياً . على الأقل من العسير علينا أن نتصور فنا رائعاً مثلا لم تطرأ فيه هذه الأسئلة ، بطريقة غير مباشرة ، في صورة أو أخرى . حقا لم يكن ويلسون أول من اهتم بهذه الأسئلة (بل اننا لا نجد جديداً في كتابه المهم الا نقده لتتاج بعض الفنانين) ، ومع ذلك فان كتابه قيمته التي تتلخص في أنه طرح فيه من جديد هذه الأسئلة في وقت شجعت فيه الفلسفة الغالبة في انجلترا على اغفالها ، وفي أنه دعا فيه بشجاعة وباخلاص الى الاهتمام بالقيم الروحية في عصر غلبت عليه النزعة العقلية والمفاهيم البرجوازية .

لقد أعلن ويلسون أنه يؤلف الآن كتابا نقديا آخر ، وانه ينوى بعد أن يفرغ من كتابته أن يكرس حياته لتأليف روايات ومسرحيات . فماذا يا ترى ستكون طبيعة هذا الكتاب وهذه الروايات والمسرحيات ؟ والى أى حد سنجد فيها تقريرا أو ايضاحا أو حلا لمشكلات الغريب ؟ وهل سيحدث ظهورها نفس الضجة التي أثارها كتاب «الغريب» ؟

(١٩٥٧)